إيبارشيَّة لوس أنجلوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
ليتورجيَّات. قناة لوغوس
نوفمبر سنة ٢٠١٥م

الكاتدرائيَّة المرقسيَّة بالإسكندريَّة
اجتماع الخُدَّام والخادمات
ديسمبر سنة ٢٠١٥م

القُدَّاس الإلهي وتصحيح رؤية (٢)

أيقونات الشُّهداء والقدِّيسين التي حجبت رؤية الهيكل، ممثَّلة في حامل الأيقونات

الرَّاهب أثناسيوس المقاري

مقدِّمة عامة

رُفع المسيح له المجد على الصَّليب بالجسد، فانشق حجاب الهيكل إلى نصفَين، وانفتح قُدْس الأقداس على القُدْس، وانتقل مذبح البُخور إلى داخل قُدس الأقداس، لكي يكون مذبح كنيسة العهد الجديد، هو مذبح البُخور ومذبح الذَّبيحة المقدَّسة معاً. و لم يعُد رئيس الكهنة يدخل إلى قُدْس الأقداس بمفرده مرَّة واحدة في السَّنة، ليُقدِّم ذبيحة عن نفسه وعن الشَّعب، بل صارت ذبيحة العهد الجديد مقدَّمة كلَّ يوم على المذبح يشترك فيها رئيس الكهنة مع الكهنة وكل الشَّعب أيضاً.

وهكذا صارت نقطة انطلاق الخدمة اللِّيتورجيَّة للقُدَّاس الإلهي في كنيسة العهد الجديد، هي مشاركة كلِّ الشَّعب فيها. وبحسب الأصول الأولى للقُدَّاس الإلهي، وخبرة الكنيسة الأولى، أنَّ الذَّبيحة لم تكن تُقدَّم باسم الجميع وعن الجميع فحسب، بل وبواسطة الجميع أيضاً. وكان مبدأ تقديم القرابين وشرطه، هما في أنَّ كل مسيحي يأتي للمشاركة في القُدَّاس الإلهي، عليه أن يُحضر معه قربانه، ويقدِّمه للشمامسة. وهكذا يهتم الجميع بالجميع، ويخدم الجميع، الجميع. وكانت هذه الحقيقة، هي من الوضوح والبداهة في الكنيسة الأولى، ما كان يحمل الأطفال اليتامى والمُعدَمين على المشاركة في هذه التَّقدمة، بإحضارهم ولو ماء الذَّبيحة، أو ماء التَّغطية، مساهمةً منهم في تقدمة المحبَّة هذه.

ولكن مع حلول القرن السَّابع الميلادي تقريباً، بدأت الهوَّة تتَّسع بين الإكليروس والشَّعب، فتغيَّر جو الكنيسة برمَّته. فانعزل العلمانيُّون عن المشاركة الحقيقيَّة في خدمة الذَّبيحة المقدَّسة، وهكذا بات واضحاً أنَّ طغمةَ الإكليروس هُم طغمة أفضل من طغمة العلمانيِّين، فصار قُدْس الأقدس أي الهيكل مخصَّصاً للإكليروس، وأمَّا صحن الكنيسة فمن نصيب الشَّعب. فانعزل الهيكل عن صحن الكنيسة بحجاب، ظهر في المعمار الكنسي القبطي مؤخَّراً، أي في غضون القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده، فصار يُخفي من ورائه كلَّ شيء. وكأننا نعود مرَّة أُخرى إلى الحجاب الذي هدمه المسيح بصليبه وموته، والذي كان يفصل قديماً بين القُدس وقُدس الأقداس.

إنَّ الهيكل المفتوح على صحن الكنيسة، بدون إيقونستاس أي حامل أيقونات يفصلهما عن بعضهما، كما حدث في القرون المتأخِّرة، كان هو الشكل الطَّبيعي واليقين الإيماني للكنيسة القبطيَّة حتى إلى ما بعد القرن الثَّالث عشر الميلادي على الأقل. ذلك لأنَّ انعزال الهيكل عن صحن الكنيسة، واعتبار الهيكل هو المكان الذي لا يحق للعلمانيِّين دخوله، قد أنشأ شعوراً بالانعزاليَّة عند العلمانيِّين، كونهم مجرَّد مشاهدين لطقوس يجريها العارفون، وهم طغمة الإكليروس، فتحول الشَّعب إلى متفرجين، وفي أحسن الحالات، مشاركين في بعض مردَّات القُدَّاس الإلهي وحسب.

فما هو تقليد الكنيسة القبطيَّة بخصوص هذا الحاجز الذي يفصل الهيكل عن صحن الكنيسة؟ وما هو تاريخه؟ وهل هو تقليد قبطي أصيل، أم منقول من تقاليد كنسيَّة أُخرى؟ هذا ما أودُّ شرحه الآن.

الحجاب أو حامل الأيقونات

كان القُدَّاس الإلهي قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥م يُمارَس منظوراً من الشَّعب. وبعد ذلك، دخلت فكرة الرَّهبة والخوف من السِّر المقدَّس، والتي بدأت في سوريا أوَّلاً - كإحدى سمات الطَّقس السِّرياني الأنطاكي - إذ أنَّ كلمة ''المقدَّس'' في السِّريانيَّة تعني دائماً ''الخطير''.

وتطبيقاً لمبدأ رهبة السِّر المقدَّس، فقد وُضعت ستارة (أي حجاب) تحجب السِّر المقدَّس عن الإكليروس والشَّعب على حدٍّ سواء. وهذه السِّتارة التي عُرفت في الفترة المبكِّرة جداً من تاريخ الكنيسة، كانت تُسدل على أربعة أركان المذبح عند بدء صلوات القسمة. ولقد شاعت هذه السِّتارة في الكنائس القبطيَّة والأرمينيَّة[١]، والسِّريانيَّة الأنطاكية[٢]. ولازال القُدَّاس الإلهي القبطي في نصِّه اليوناني، يحتفظ بمرد للشمَّاس عند بدء صلوات القسمة، يقول فيه: ''الشَّمامسة ينزلون''، حيث لا يبقى في الهيكل، سوى الكاهن المقدِّس والشمَّاس الذي يساعده في القسمة.

ولاحظ هنا، أنَّ هذه السِّتارة التي نتكلَّم عنها، لم تكن تعرفها الكنيسة البيزنطيَّة. ذلك لأنَّ هذه الكنيسة أخذت منحى مختلف، إذ أننا في كنيسة آجيَّا صوفيَّا بالقسطنطينيَّة، والتي بناها الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) في القرن السَّادس الميلادي، نقابل أوَّل حجاب مبني، ليفصل بين هيكل هذه الكنيسة وصحنها. وكان منظر الحجاب في الكنيسة اليونانيَّة مشابهاً للمناظر الخلفيَّة للمسارح اليونانيَّة، إذ أنَّ الطَّقس اليوناني قد أخذ بالفعل شيئاً من صفات الدِّراما[٣]. وهذا الحجاب كان مصنوعاً من الفضَّة، مقسَّم إلى أقسام طوليَّة، محفور عليها أيقونات للسيِّد المسيح، وقدِّيسين آخرين.

ويذكر جور Goar – ويشاركه في ذلك المستشرق الألماني دُكتور أزولد بورمستر O.H.E. Burmester[٤]– أنَّ شكل هذا الحاجز أي الإيقونستاس بوضعه الرَّاهن والمسدود تماماً، وعليه أيقونات القدِّيسين، قد ظهر بدءًا من القرن الثَّامن أو التَّاسع في الكنيسة البيزنطيَّة، ثمَّ أُدخلت عليه تعديلات لتوفير فراغ أكثر، لتركيب الصُّوَر، كرد فعل فنِّي حاد، معارِض لحرب الأيقونات في الكنيسة اليونانيَّة[٥].

ولأنَّ الكنيسة القبطيَّة – ومعها الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة – كانت قد قطعت كلَّ صلة بالكنيسة اليونانيَّة بعد مجمع خليقدونية سنة ٤٥١م، أي بعد منتصف القرن الخامس الميلادي، ثمَّ صارت بمعزل تام عن أيِّ أحداث تخُص العالم البيزنطي بدءًا من منتصف القرن السَّابع الميلادي بعد دخول العرب إلى البلاد سنة ٦٤٢م، فإنها كانت بعيدة تماماً عن نتائج هذه الحرب.

1- J. G. Davies, *A Dictionary of Liturgy & Worship*, London, 1984, p. 196.

٢- إغناطيوس أفرام الثاني، البطريرك السرياني الأنطاكي، المباحث الجليَّة في الليترجيات الشرقيَّة والغربيَّة، دير الشرفة، ١٩٣٤م، ص ٦٤

وهذا البطريرك السَّابق ذكره، يُسمى حاليًّا، إغناطيوس أفرآم الأوَّل (١٩٣٣-١٩٥٧م) الـ ١٢٠، لأنَّ البطريرك الحالي اسمه إغناطيوس أفرآم الثَّاني (٢٠١٤- الآن) الـ ١٢٣ وسبب هذا اللَّبس هو وجود بطريرك باسم أفرآم أو أبرآم (٩٦٢-٩٦٣م) وهو الـ ٦٤ ولكنَّه لم يكن يحمل لقب إغناطيوس. وهو اللَّقب الذي لم يُعرف في الكنيسة السِّريانيَّة إلاَّ في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وأول بطريرك لُقب به هو البطريرك إغناطيوس بهنام (١٤٤٥-١٤٥٤م) الـ ٩١ من بطاركة الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة.

٣- دكتور أزولد بورمستر، القُدَّاس الإلهي والتَّطوُّرات المتأخِّرة التي طرأت عليه، مرجع سابق.

4- O.H.E. Burmester, *The Egyptian or Coptic Church...*, Le Caire, 1967, p. 19.

٥- حرب الأيقونات، هو نزاع نشب في كلِّ أرجاء الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة طيلة قرنَين من الزَّمان ليغطِّي على أحداث القرنَين الثَّامن والتَّاسع للميلاد. ففي سنة ٧٢٦م أتلف الإمبراطور لاون Léon الثَّالث (٧١٧-٧٤١م) أيقونة للسيِّد المسيح، كانت فوق باب قصره في القسطنطينيَّة، فكان هذا العمل الأهوج بمثابة نقطة الانطلاق نحو سياسة تحطيم الأيقونات. وبلغ التَّحطيم ذروته في عهد الإمبراطور التَّالي له، وهو قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) فاستشهد بعض الرُّهبان دفاعاً عن الأيقونات، إلى أن دعت الإمبراطورة إيريني Iréne إلى عقد مجمع في نيقيه سنة ٧٨٧م اعترف بصحَّة تكريم الأيقونات. لكن الصِّراع ما لبث أن استؤنف من جديد سنة ٨١٣م، ولم يهدأ بصفة نهائيَّة إلاَّ في سنة ٨٤٣م حين عاد الهدوء والسَّلام، وانتصرت الكنيسة والشَّعب على إرادة الأباطرة، وذلك حين أعادت الإمبراطورة ثيؤدوره إكرام الأيقونات بمساعدة البطريرك ميثوديوس، في الأحد الأوَّل من الصَّوم الكبير في احتفال مهيب، تُجدِّد ذكره الكنيسة البيزنطيَّة كلَّ عام، هو يُدعى بعيد ''أحد الأرثوذكسيَّة''. والجدير بالذِّكر هنا، أنه لا علاقة للأقباط والسِّريان بحرب الأيقونات، لأنَّ الكنيستَين القبطيَّة والسِّريانيَّة الأنطاكيَّة، كانتا قد ابتعدتا عن كلِّ ما هو بيزنطي، بعد منتصف القرن الخامس الميلادي، بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، ثمَّ قطعتا كلَّ صله ببيزنطة في منتصف القرن السَّابع الميلادي، بعد دخول العرب البلاد.

وهكذا ظلَّ هيكل الكنيسة القبطيَّة مكشوفاً على صحن الكنيسة على مدى صلوات القُدَّاس الإلهي باستثناء بدء صلوات القسمة، حين تُسدل ستارة على المذبح فقط، وليس على الهيكل كلِّه، وذلك حتى أواخر القرن الثَّاني عشر الميلادي.

وفي وقت مبكِّر، بدأ يظهر في الكنيسة القبطيَّة، الحاجز الخشبي المشغول، حاوياً فراغات كثيرة، والمعروف باسم فن الأرابيسك. وهو حاجز لا يحجب الهيكل عن الكنيسة، بل يفصل بينهما فحسب بشكل درابزين. وفي وسط هذا الحاجز الخشبي باب يفتح إلى داخل الهيكل. ونعرف من يوسابيوس القيصري (٢٦٠-٣٤٠م) المؤرِّخ، أنَّ هذا الحاجز الخشبي المشغول، كان معروفاً من قبل في الكنيسة الكبيرة في مدينة صور بفلسطين، حيث يذكر أنَّ هذا الحاجز كان مصنوعاً من مصبَّعات من الخشب المشغول بدقة فنيَّة تُثير دهشة النَّاظرين.

ويحتفظ المتحف القبطي بالقاهرة، بباب كنيسة السِّت برباره، الذي يعود تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي. وهو باب خشبي ثمين ضخم، مكوَّن من دلفتين، عوارضهما من خشب الجميز، وأمَّا حشواته فهي من خشب الجوز. وتُعتبر نقوشه آية من آيات الفن القبطي الرَّفيع في أوج ذروته. ولقد تآكلت الأجزاء السُّفلى من ذلك البَاب بتأثير تعرُّضها للرُّطوبة. أمَّا الحشوات العُليا منه فلا تزال آثارها باقية، تشهد بفن رفيع عولج بمهارة فائقة، وقوَّة نادرة في اليد التي أسبغت عليه سحراً ينتزع الإعجاب من النَّاظرين.

وظلَّ هذا الحاجز يُصنع في كنيسة مصر من الخشب المشغول المزيَّن بزخارف من الأرابيسك الصَّعب التَّركيب، أو من الأشكال الهندسيَّة بديعة الجمال، ومطعَّم بصُلبان ونجوم من العاج، منحوتة بدقَّة عجيبة، دون اهتمام بترك مساحات فيه لتركيب الأيقونات عليها. وفي ذات الوقت كان يمكن أن يُحفر على هذا الحاجز المصنوع من الخشب المنقوش، صوَر بعض القدِّيسين، وذلك لغاية القرن الحادي عشر. وفي منتصف هذا الحاجز باب الهيكل، وهو بضلفتَين تُفتحان إلى داخل الهيكل عند بدء الخدمة، وهما من ذات الخشب المشغول، والمطعَّم بدقَّة عالية تدعو إلى التَّأمُّل. وهو ما نجده حتى اليَوم في كنيستي أبي سرجه والعذراء بحارة زويله. ولا يتجاوز الزَّمن الذي أقيمت فيه هذه الحواجز، القرن العاشر الميلادي. ولابد أنه قد وُضع في مكانه بالكنيسة، قبل ذلك مبكِّراً بقرن آخر من الزَّمان[٦].

ثم بعد ذلك كان الحجاب يُصنع من الخشب المشغول المطعَّم بالعاج والأبنوس بالتَّبادل كتُحفة فنيَّة رائعة. وعلى جانبي بابه الرَّئيسي كانت توجد نافذتان صغيرتان تُستخدمان لمناولة المؤمنين من الأسرار المقدَّسة حتى لا تخرج المقدَّسات خارج الهيكل. وكانتا تُستخدمان أيضاً لمراقبة أبواب الكنيسة في عصور الاضطهاد[٧].

أي أنَّ التَّقليد القبطي ظلَّ يكتفي بنقش بعض أيقونات السيِّد المسيح والقدِّيسين على الحاجز الخشبي المشغول ذات الفراغات التي لا تحجب رؤية الهيكل، سواء بالحفر أو بالبارز. وفي زمن **البابا غُبريال الثَّاني بن تُريك** (١١٣١-١١٤٥م)، وفي فترة العصر الفاطمي في مصر (٩٦٩-١١٧١م)، أي في القرن الثَّاني عشر الميلادي، تعمَّم استخدام هذا الحاجز الخشبي في الكنيسة القبطيَّة. ولقد ظلَّت لمصر السِّيادة في الحفر على الخشب وصناعته حتى القرن السَّادس عشر الميلادي[٨].

ثمَّ كانت المرحلة التَّالية حينما عُلِّقت الأيقونات المرسومة - وليس المنقوشة على الخشب - في أعلى الحجاب الخشبي المشغول، ليظل بفراغاته كاشفاً للهيكل المقدَّس.

أمَّا نماذج الإيقونستاس ذات المدخل المنخفض، فهي ليست إلاَّ تطويراً لنظام أقدم زمناً، أي أنَّ هذه المداخل المنخفضة هي أكثر حداثة. لأنَّ كنائس الأديرة ولاسيَّما أديرة القدِّيس أنبا مقار، والسيِّدة العذراء السِّريان، والقدِّيس أنبا بيشوي، نجد فيها أنَّ باب الهيكل يُفتح ليكشف تماماً كلَّ الهيكل عند بدء الخدمة. وأنَّ الحروف السِّريانيَّة المدوَّنة على العارضة العُليا

٦- ألفريد بتلر، الكنائس القبطيَّة القديمة في مصر، الجزء الأول، ترجمة الأستاذ إبراهيم سلامة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٤١، ١٦٩

7- O.H.E. Burmester, *The Egyptian or Coptic Church..., op. cit.*, p. 19.

٨- دكتورة سيِّدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٩٣، ٢٩٤

لأبواب الكنيسة الكُبرى بدير السِّريان، تحدِّد تاريخ هذه الأبواب بما لا يتجاوز سنة ٧٠٠ ميلاديَّة.

ولم يعتد السِّريان والأرمن بوضع الأيقونات على الحجاب. فيذكر البطريرك إغناطيوس أفرآم الثَّاني (١٩٣٣-١٩٥٧م) بطريرك الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة، أنه ليس من عادة السِّريان أن يضعوا فوق أبواب الهياكل الثَّلاثة التي تفصل الهياكل عن الخوروس، صوَر الرُّسُل والقدِّيسين كما شرع اليونان يفعلون منذ ظهور هرطقة محاربي الأيقونات[٩]. ولازال الحجاب عند الأرمن عبارة عن ستارة فقط. أمَّا الموارنة وتحت تأثير اللاَّتين، فلا يستعملون حجاباً أو حامل أيقونات.

وابتداءً من القرن الرَّابع عشر وأوائل الخامس عشر، صار حامل الأيقونات معروفاً ومستخدماً في كافة الكنائس الشَّرقيَّة، وصار هذا الحاجز حائطاً من الخشب أو الحجارة، لتعليق الأيقونات عليه. ومن هنا كان اسمه، فهو في اليونانيَّة εἰκωνηστάσις (إيقونستاسيس) أي "حامل الأيقونات". فاحتجب الهيكل تماماً عن صحن الكنيسة.

والكنيسة القبطيَّة ليس لديها ترتيب محدَّد لوضع أيقونات القدِّيسين على الحجاب أو حامل الأيقونات، باستثناء أيقونة السيِّد المسيح عن يمين الدَّاخل إلى الهيكل من بابه الملوكي، وأيقونة السيِّدة العذراء تحمل الطِّفل يسوع على يسار الدَّاخل إلى الهيكل، وبذلك تجلس الملكة عن يمين الملك في مواجهة الشَّعب.

وفي كثير من الكنائس القبطيَّة تكون أيقونة القدِّيس يوحنَّا المعمدان إلى جوار أيقونة السيِّد المسيح مباشرة، لأنه السَّابق الصَّابغ. وإلى جوار أيقونة السيِّدة العذراء أو بعدها بقليل، تكون أيقونة رئيس الملائكة ميخائيل كما في كثير من الكنائس القبطيَّة. وعدا ذلك فيمكن وضع أيِّ أيقونات لملائكة أو لقدِّيسين، ولاسيَّما لقدِّيس الكنيسة التي تُسمَّى على اسمه.

أمَّا ترتيب أيقونات القدِّيسين بحسب ترتيب كتابي دورَتي عيدي الصَّليب والشَّعانين، والذي لم يكن معروفاً قبل سنة ١٩٢١م، فليس هو التَّرتيب الأوفق، لأنه لا يمثِّل التَّقليد القبطي القديم بثرائه وغناه اللِّيتورجي، حيث أنَّ دورة عيدي الصَّليب، وما يُقرأ فيها من فصول من الأناجيل المقدَّسة، كانت تتم في كلِّ دير أو في كلِّ كنيسة من كنائس المُدُن والقرى، تتم على حسب عادة كل منها، طبقاً للأماكن التي يُراد تبريكها بالصَّليب المقدَّس، وقراءة فصل من الإنجيل المقدَّس.

وتُكرَّس الأيقونات المقدَّسة في الكنيسة بالصَّلاة وبالدَّهن بالميرون المقدَّس الذي هو ختم الرُّوح، من يد الأُسقُف. وتقبل الأيقونة وقت تكريسها نفخة الرُّوح القُدُس، ليعمل الرَّب بها للشِّفاء واستجابة الصَّلاة.

وأمَّا الشُّموع أو القناديل التي كانت توقد أمام الأيقونات، قد استبدلت بمصابيح كهربائيَّة في مواجهة المصلِّين، وهو ما يتنافى مع الذَّوق الدِّيني، والوقار اللاَّئق بالكنيسة كمكان للعبادة والصَّلاة.

وبرغم محبَّتنا لأيقونات الشُّهداء والقدِّيسين، وإيماننا باقتدار شفاعتهم وصلواتهم من أجلنا، إلاَّ أنَّ أيقوناتهم المقدَّسة وهي محمولة على حجاب يسد تماماً هيكل الكنيسة ويفصله عن صحنها، قد حجبت عن الشَّعب رؤية الهيكل المقدَّس، ورؤية المذبح المقدَّس في وسطه. وكأنه ما انشق الحجاب الذي كان يفصل قُدس الأقداس عن القُدُس، في يوم الصَّليب. ولكن هذا لا يعني أن تنكشف الأسرار المقدَّسة ذاتها والكائنة على المذبح أمام الجميع. فالسِّر المقدَّس يظلُّ سرًّا تكتنفه الهيبة والجلال، لا يجب تصويره أبداً بوسائل بصريَّة حديثة.

لقد طغت أيقونات الشُّهداء والقدِّيسين على كل شيء في الكنيسة، لتُرسم على جدران الكنيسة وشبابيكها، وأسقُفها، وأعمدتها، بل لتُرسم أيضاً على ستر باب الهيكل، وحتى على كُرسي الكأس الموضوع على المذبح. بل امتد رسمها حتى على ثياب الخدمة الكنسيَّة أيضاً. فهل توارى الصَّليب في الكنيسة؟ أتذكَّر هنا قول القدِّيس بولس الرَّسول: «لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلاَّ يسوع المسيح وإياه مصلوباً» (١كورنثوس ٢:٢).

٩- البطريرك الأنطاكي إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ٦٤